الفصل الأول

الإيقـــــاع

تعريف الإيقاع في العالم العربي:

إن للإيقاع أهمية كبيرة في عالم الفن والموسيقى ونواحي الحياة كافة، هذه القيمة الكبيرة أدت إلى استقطاب العلماء لهذا العنصر الفني، وأفردوا تعاريف مختلفة تعبر عن مفهوم شامل لمعنى الإيقاع فنياً. فحللوه وبيّنوا ضروبه وأوزانه على اختلافها. فبذلوا ما بوسعهم من جهد حميد حتى يكون مفهوم الإيقاع بما يحويه من عناصر فنية يسيراً على المتلقي. لذلك حاول كل منهم على حدة أن يبّسط هذا الأمر وبطريقته الخاصة بتعريف أو بقول يعبر عن آراءه الذاتية. ولهذا الأمر اخترنا تعاريف مختلفة بخصوصية الإيقاع سوف نبيّن كلا منها على صورته.

تعريف الإيقاع عند العلماء والفلاسفة العرب:

١- عند الكندي (٧٩٦-٨٧٤م):

هو النسب الزمانية أو الزمنية.

٢- عند الفارابي (٨٧٠-٩٥٠م):

هو عبارة عن سلسلة أزمنة يوضحها النقر على آلة مجوفة كـ (الطبل والدف) وغيرهما.

٣- تعريف النقرات عند الفارابي:

وهي القرعات التي تخيل أنها غير منقسمة، والنقرة لا زمن لها تصبح كالنقطة في مكان عند علماء الهندسة. والزمن هو المدة الواقعة بين نقرتين. ويوضح

الفارابي النقرة التي تعقبها وقفة تسمى تن، والتي تعقبها حركة إلى نغمة تسمى (تا)، ويسمى الإيقاع الغنائي (الإيقاع الموصل)، ويسمى الإيقاع الذي أزمنته غير متساوية (الإيقاع المفصل).

٤- تعريف الإيقاع عند ابن سينا وابن زيله (٩٨٠-١٠٣٧م) (١٠٤٨م):

هو تقدير لزمان النقرات، أي البحث عن مقادير الأزمنة المتخللة بين النغم يسمى علم الإيقاع.

٥- تعريف الإيقاع عند الحسن الكاتب في القرن العاشر الهجري:

و قسمة زمان اللحن بنقرات، وهو النقلة على أصوات مترادفة في أزمنة تتوالى متساوية، وكل واحد منها يسمى دوراً.

فالإيقاعات هي أوزان أزمنة النغم. وسمي الزمان زماناً لأن نهايته نقرتين يحصرانه بينهما، وهو الدَّوي الحادث.

٦- الإيقاع عند صفي الدين البغدادي (١٢٩٤م) "البغدادي":

هو جماعة نقرات تتخللها أزمنة محدودة المقادير على نسب وأوضاع مخصوصة بأدوار متساويات. يدرك تساوي تلك الأدوار ميزان الطبع السليم.

بعد هذه التسهيلات التي عرضناها للكشف عن هوية الإيقاع ومفهومه، ننتقل إلى أهم ما استعمل من الإيقاعات الثمانية عند العرب.

الإيقاع في زمن الخلفاء الراشدين:

لقد استخدموا واستعملوا إيقاعات كثيرة أهمها: الإيقاعات الأربعة المستخدمة:

أ- الثقيل الأول وزنه ١٠/٤

ب- الثقيل الثاني وزنه ١٠/٨

ج- الخفيف وزنه ٦٤/٤

د- الهزج وزنه ٢٢/٤

- وأضاف إليها ابن محرز (٧٥٠م) (الرمل والرمل الطنبوري)

ونقول أخيراً إن ابن زيله اتبع طريقة حسابية في نظريته الإيقاعية غير التي اتبعها أستاذه ابن سينا والفارابي والكندي اللذين اعتمدوا على طريقة التقطيع الشعري في معالجة الإيقاع الموسيقي، لذلك فهو يوجه اللوم إليهم قائلاً:

«وتذاكر المتقدمون والمتأخرون في أمر الإيقاعات وعددها، فخلطوا تخليطاً عظيماً، وأظنهم لم يقضوا على الأمر الحق فيها، وكل واحد مما ادعى على الموسيقى سلك في إيقاع القسمة عليها، وذكر أقسامها مسلكاً مخالفاً لمسلك الآخر، وغير مؤدٍ إلى وضوح كنه الأمر فيها، وإلى ما يجد الطباع دالة عليها، وشاهده بصحتها. والاستعمال مطابقاً لها، وكتبهم تنطق بصحة ما حكينا عنهم وتدل على بعدهم عن الحقيقة، وذهاب كفة الأمر عليهم».

وبهذا يكون قد وضح لنا أن اللذين سبق ذكر أسماءهم لم يعطوا الإيقاع حقه.

ونقول إن ابن زيله استخدم في طريقته الحسابية رموزاً لمعرفة النبرات القوية والضعيفة بالشكل التالي.

- حرف /ت/ للنقرة القوية الواحدة تسمى /دم/.

- علامة الدائرة الصغيرة /o/ لسكون مقداره زمن نقرة واحدة تشبه الشدَّة / فوق التاء للنقرة الضعيفة /تك/تْ/.

أهم الإيقاعات الإضافية على الإيقاعات الثمانية الأساس:

نبدأ بإسحاق الموصللي وجماعته. بسبب اندماج عناصر فارسية مع عناصر تركية طرأ تغير على الأصول الإيقاعية، وذلك في عددها وصيغتها وشرحها. وكما نلاحظ في مؤلفات صفي الدين عبد المؤمن (١٢٩٤) الذي يقول:

أعلم أن عند العرب إيقاعات أو أنواع الأدوار الإيقاعية المستعملة من طرف أرباب هذا الفن تسعة (٩) وهي:

الإيقـــــاع	عـــــــدد نقراتـــــــه		
الثقيـــل الأول	١٦	أو	٣٢ نقـــرة
الثقيـل الثـاني	٨	أو	١٨ نقـــرة
خفيـف الثقيـل	٤	أو	٨ نقـــرة
خفيـف الرمـل	٦	أو	١٢ نقـــرة
الرمـــــــل	١٠	أو	١٢ نقـــرة
الهـــــــزج	٦		نقـرات

ثم نضيف بعد ذلك ثلاثة إيقاعات:

الإيقـــــاع	عـــــدد نقراتـــــه	
ثقيـل الرمـل	٢٤	نقـــرة
الهزج السريع	٦	نقـــرات
الفـــــاختي	٢٠ أو ٢٨	نقـــرة

وبعـد القـرن العاشـر الهجـري بـدأت الحداثـة تظهـر علـى الإيقاعـات الـشرقية، حصلت بعض التعديلات في أوزانها.

الإيقاع في القرن الخامس عشر الميلادي "صفي الدين البغدادي":

كانـت الإيقاعـات المشهورة وعـددها /٦/ سـتة إيقاعـات حسب قـول الـبعض، و /٧/ سبعة حسب قول آخرين.

هذا يعود لمؤلف كان يعتمد على صفي الـدين حتـى إيقـاع الفـاختي ثـم يـضيف عدداً من الإيقاعات الحديثة. وعلى سبيل الـذكر لم يعـرف اسـم هـذا المؤلـف. ويقـول الجرجـابي (١٣٣٩-١٤١٣) إن النـسب الكائنـة بـين الأدوار الإيقاعيـة يجعـل عـددها لا نهاية له. ومن هذه الإيقاعات الحديثة:

الإيقـــــــــــــاع	عـــــدد نقراتـــــه	
الثقيل الأول مقصود به (ورشان)	١٦ أو ٣٢	نقـــرة
الثقيـــــــل الثـــــــاني	١٦	نقـــرة
خفيـــــــــف ثقيـــــــل	٨	نقرات

الإيقـــــــــــــاع	عـــــدد نقراتـــــه	
ثقيـــــــــــل رمـــــــــــل	٢٤	نقـــرة
الرمـــــــــــــــــــــل	١٢	نقـــرة
خفيـــــــــــف رمـــــــــــل	١٦	نقـــرة
الهـــــــــــــــــــــزج	١٦	نقـــرة
خفيـــــــــــف الهـــــــــــزج	٦	نقـــرات
هـــــــــــزج ثقيـــــــــــل	٨	نقـــرات
الفـــــــــــــــــــــاختي	٢٨	نقـــرة

ونضيف على هذه الإيقاعات ضروباً إيقاعية جديدة:

الإيقـــــــــــاع	عـــــدد نقراتـــــه	
رمـــــل طويـــــل	٣٤	نقـــــرة
خفيـــــــــــف	١٦	نقـــــرة
ثقيـــــــــــل	٢٤	نقـــــرة
ضـــرب بيـــشرو	٤	نقـــرات
ضـــرب أوســـط	١٠	نقـــرات
تركـــي أصـــل	٢٠	نقـــــرة
تـــشهر ضـــرب	٢٤	نقـــــرة
ضـــرب الفـــتح	٤٩	نقـــــرة
ضـــرب الربيـــع	٢٤	نقـــــرة
شـــــاه ضـــــرب	٣٠	نقـــــرة
ضـــرب المئـــتين	٢٠٠	نقـــــرة

وهكذا كان التطور حليف الإيقاع، فكل عصر امتاز بضروب إيقاعية جديدة تميزه عن غيره من العصور السالفة، فضلاً عن وجود إيقاعات واحدة تمثل القاسم المشترك بينهما. فكل عصر له سماته الفنية الخاصة به في عالم الفن والموسيقى، ونرى عبر قراءتنا تسلسل التطور التاريخي في عالم الإيقاع خاصة

والموسيقا والفن عامةً. وهذا المزيج من التطور قد حصل في القرن السادس عشر، حيث ازداد عدد الإيقاعات المستعملة لتشكل خزينة فنية جديدة في عالم الموسيقا، وذلك كان في عهد اللازمي. حيث قدم لنا هذه الإيقاعات ممثلة بأربعة أقسام:

اللازمي والإيقاعات المتداولة عند العرب:

الإيقاع	عدد نقراته	
ثقيل أول /ورشان أو برفشان/	١٦ أو ١٧	نقرة
ثقيل ثاني /مخمس كبير أو أوسط/	١٦	نقرة
خفيف الثقيل	٢٤	نقرة
خفيف الرمل	١٠	نقرات
هزج كبير	١٠	نقرات
هزج صغير /تشنير أصول/	٦	نقرات

وأضاف اللازمي على هذه الضروب الإيقاعية الستة ضروباً إيقاعية جديدة ممثلة بأربعة ضروب جديدة وهي:

الإيقاع	عدد نقراته	
رمل	١٢	نقرة
فاختي صغير	١٠	نقرات
فاختي كبير	٢٠	نقرة
فاختي زائد	٢٨	نقرة

وفي عصرنا لم يعد يستعمل من بين هذه الإيقاعات الواردة إلا الثقيل الأول، والإيقاع الفاختي الصغير.

اللازمي والإيقاعات المستعملة عند المعاصرين:

تعددت هذه الإيقاعات حتى بلغ عددها ثمانية عشر إيقاعاً، ولكن لم تكن لهذه الإيقاعات أهمية مؤثرة في عالم الفن والموسيقى نظراً لقلة استخدامها في الجمل اللحنية..

هـذه القيمـة الفنيـة الـصغيرة جعلتنـا نـورد بعـضاً منهـا فقـط مـن أجـل المعرفـة والثقافة الفنية. ونذكـر على سبيل المثال أربعاً من هذه الضروب الفنية:

الإيقاع	عدد نقراته
شـــاه انـــدار	١٤ نقـــرة
تشهار ضـرب	٩٦ نقـــرة
ضـرب الفـتح	٨٨ نقـــرة
برفـــــــشان	١٧ نقـــرة

ومن هذه الأهمية القليلة لهذه الضروب، إلا أنه كـان هنالـك ضـروب إيقاعيـة تستعمل في الألحان الموسيقية ولكن بشكل لا يذكر لهذا الاستخدام الفني، ومن هذه الضروب الإيقاعية نورد على سبيل المثال ثلاثاً منها "عند اللازمي"

الإيقـــــاع	عـــدد نقراتـــه
رُكـــــاب	٣٢ نقـــــرة
تـشار خفيـف	٨٤ نقـــــرة
راح كـــــرد	٤٤ نقـــــرة

بعد هذا التقديم لهذه الضروب الإيقاعية المستعملة منها والقليلة الاستعمال، نـضيف لهـاتين الفئـتين فئـة إيقاعيـة غـير مـستعملة ونـادرة الاسـتعمال في ذلـك الحـين وعددها أحد عشر ضرباً، وندونها مرتبة حسب عدد النقرات الخاصة بكل إيقاع وهي:

الإيقـــــــــاع	عـدد نقراتـه
تركي (أصل قديم)	٢٤ نقـــرة
تركي (أصل صغير)	٢٠ نقـــرة
تركـــــي خفيـــف	١٢ نقـــرة
مخمـــــس كـــــبير	١٠ نقرات
تركـــــي ســـــريع	٦ نقرات
مخمـــــس صـــــغير	٤ نقرات

الإيقـــــــــاع	عـدد نقراتـه	
مخمـــس أوســـط	٨	نقرات
ضـــرب شـــاهين	٣٠	نقـــرة
قميريـــــــــه	٥٠	نقـــرة
الحديـــــــــد	١٤	نقـــرة
ضـــرب المـــائتين	٢٠٠	نقـــرة

هكـذا نكـون قـد عرضـنا مـوجزاً للإيقاعـات الكـثيرة المـستخدمة وغـير المـستخدمة في القـرون الـسالفة. وتطرقنـا إلى أقـوال في الإيقـاع عنـد الكـثير مـن المفكرين الفلاسفة والمعاصرين العرب وتعرفنا على كل عصر على حدة لما رُسم له من ألوان إيقاعية تميزه عن غيره من العصور. هكذا نكون قد كشفنا في حقيبة مدرستنا العربية الأصيلة والقديمة عن هذه الإيقاعات السائدة في الشرق الأصيل وإن كنا قد سمعنا ببعضها كتابة فقط من دون سماعها عزفاً، حيث رجعنا إليها عبر مصادرنا ووثائقنا التاريخية وتعرّفنا عليها.

إذا تكون هذه المعلومات التي قد تم ذكرها دراسة تاريخية لهذا العنصر الفني الروحي في الموسيقا، والذي يتشكل في الموسيقا، وتتشكل وتتكون الموسيقا منه.

تدوين الضروب الإيقاعية قديماً:

لقد اتبع في تدوين الضروب الإيقاعية قديماً طريقتين: اصطلاحية وخطية.

الطريقة الاصطلاحية:

ذلك بوضع رموز مصطلح عليها وإشارات.

الطريقة الخطية:

وهي طريقة كتابية.

وهاتان الطريقتان المتبعتان في التدوين الإيقاعي كلاهما صحيحتان من حيث التدوين، ولا يوجد خلاف في استخدام هاتين الطريقتين في رسم العلامات الإيقاعية

المراد تدوينها. ولنتعرف على كل من هاتين الطريقتين عملياً وتدوين كل منهما، وذلك عبر الجداول الإيقاعية القديمة:

- لتدوين الضربة الثقيلة /دم/	تلفظ /تم/
طريقة اصطلاحية	طريقة كتابية
(o)	(تم أو دم)

- لتدوين الضربة الخفيفة /تك/	
طريقة اصطلاحية	طريقة كتابية
(ا)	(تك)

- لتدوين إشارة الصمت /إس/:	
طريقة اصطلاحية	طريقة كتابية
(x أو .)	(x)

- لتدوين الدُّم المودوج /دُمّ/	
طريقة اصطلاحية	طريقة كتابية
(o o)	(دم - دم)

- لتدوين التك المزدوج:	
طريقة اصطلاحية	طريقة كتابية
(ا ا)	(تك - تك)

- لتدوين الرباط:	
طريقة اصطلاحية	طريقة كتابية
(o x ا) أو (o - ا)	(دم - تك)

إن هاتين الطريقتين كانتا شائعتين في التدوين الإيقاعي.

ملاحظة:

إن معرفتنا للموازين التي نستخدمها اليوم لم تكن بالأمر السهل، حيث محّص العلماء الكتب القديمة وفتشوا وريقاتها فاستنبطوا ما أدركته أذهانهم

وعقولهم إلى أن اهتدى بعضهم إلى قواعد ثابتة الموازين والأصول، فقربوها للأذهان معدلين فيها حتى وصلوا إلى الطريقة الإفرنجية في تدوين الإيقاعات والأوزان وما يتبعها من علامات اصطلاحية من الصحيحة والقواعد الثابتة.

أهمية الإيقاع الموسيقي:

للإيقاع الموسيقي دور رئيس في نظم الشعر، حيث أصبح هو الركن والأساس في عملية النظم فعرفت محاولات عديدة من مزدوجات وموشحات وأهم ما يجب الانتباه إليه وهو العنصر الإيقاعي.

فكان للإيقاع الموسيقي تأثيراً عميقاً في تطور الشعر لا سيما في العصر العباسي حيث يكون الغناء الشعري ملازماً للإيقاع، ومن ذلك حيث أتاحت مجالس الخلفاء فرصة ذهبية للعالم الموسيقي والتنويع الشعري، وعلى سبيل الذكر أن معرفة الخليل بن أحمد الفراهيدي لقواعد الموسيقا العربية هي التي مكنته من اختراع علم العروض بعد أن صنف كتاباً في النغم وآخر في الإيقاع. على هذا فالإيقاع هو العنصر الأساس في عملية الفن والإنشاد الشعري، وعندما يغيب هذا العنصر تختفي معالم الجمال في الغناء والطرب على السواء.